نمو السكان ومستقبل الانسان

لا شبهة ان سكان القطر المصري تضاعف عددهم في نحو ثلاثين سنة . كان عددهم ٦٨٢١١٣١ سنة ١٨٨٢ فبلغوا ١١٢٨٧٣٥٩ سنة ١٩٠٧ فاذا فرضنا ان عددهم يتضاعف كل خمسين سنة لا كل ثلاثين بلغوا ٢٣ مليوناً سنة ١٩٥٧ و٤٦ مليوناً سنة ٢٠٠٧ و٩٢ مليوناً سنة ٢١٠٧ . ولكن لو زاد عدد السكان على هذا النحو دائماً بل لو تضاعف كل مئة سنة لا كل خمسين سنة منذ الفتح الاسلامي لكان عددهم الآن اكثر من اربعين الف مليون نفس اي اكثر من سكان المسكونة كلهم خمسة وعشرين ضعفاً . اما في الزمن الماضي فلم يكن ذلك ميسوراً لا لأن المواليد كانت قليلة بل لان الوفيات كانت تساوي المواليد او تزيد عليها بسبب الامراض والاوبئة والحروب والمجاعات ولذلك مرّ على القطر اثنا عشر قرناً وسكانهُ ينقصون لا يزيدون حتى انحط عددهم في اوائل ايام محمد علي الى نحو مليونين ونصف مليون لا غير بعد ان كانوا في زمن الفتح نحو عشرة ملايين

وقد كان ذلك حال كل الامم ولا يزال حال الامم المتوحشة او غير المتمدنة حتى الآن . مثال ذلك ان سكان انكلترا وويلس كانوا ٣٧٠٠٠٠٠ نفس سنة ١٤٨٠ فصاروا ٦٥٠٠٠٠٠ سنة ١٧٥٠ اي زادوا ٢٨٠٠٠٠٠ فقط في ٢٧٠ سنة او ٧٥ في المئة ثم زادوا في الثلاثين سنة التالية ٣٠٠٠٠٠٠ فكأنهم زادوا في ٣٠ سنة مقدار ما زادوا قبلاً في ٢٧٠ سنة . ثم زادوا من سنة ١٧٥٠ الى سنة ١٨٥٠ اكثر من احد عشر مليوناً لانهم كانوا ٦٥٠٠٠٠٠ فبلغوا ١٧٦٠٠٠٠٠

وقد حسبوا ان المانيا فقدت بالحروب سنة ملايين نفس من سكانها في ثلاثين سنة بين سنة ١٦١٨ و ١٦٤٨ وان الموت الاسود اي الطاعون اهلك نصف سكان انكلترا في سنة واحدة بين سنة ١٣٤٨ و١٣٤٩ وكثيراً ما كان الطاعون يميت ربع السكان الى نصفهم في السنة الواحدة فسنة ١٥٩٣ بلغت وفيات الطاعون في بلاد الانكليز ٢٤٠ في الالف وسنة ١٦٢٥ بلغت ٣١٠ في الالف وسنة ١٦٦٥ بلغت ٤٣٠ في الالف

ولما فشا الطاعون في المسكونة منذ خمسة قرون ونصف مات بهِ ثلثا الناس كلهم ومات بهِ في اوربا وحدها سنة ١٣٤٧ خمسة وعشرون مليوناً ومات بهِ في القرم ثمانون الفاً وفي مدينة البندقية مئة الف

وقد حسبوا ان متوسط عمر الانسان كان في مدينة جنيفا بسويسرا في القرن السادس

عشر ٢١ سنة وفي القرن السابع عشر ٢٦ سنة وفي القرن الثامن عشر نحو ٣٤ سنة وفي القرن التاسع عشر ٤٠ سنة لا لأن الناس طالت اعمارهم بل لان الذين يموتون صغاراً قلوا كثيراً فزاد متوسط العمر

الا ان الزيادة التي شهدتها بعض البلدان في عدد سكانها في القرن الماضي بقلة الوفيات مع زيادة المواليد لم تستمر لا لان الوفيات زادت عما كانت عليه بل لان المواليد قلّت كثيراً فقد كان سكان الولايات المتحدة الاميركية يتضاعفون كل ٢٥ سنة فلو استمرت زيادتهم على هذه النسبة لبلغ عددهم (اي عدد المولودين في اميركا فقط غير المهاجرين اليها) ١٠٠ مليون نفس سنة ١٩٠٠ و ٨٠٠ مليون سنة ٢٠٠٠ و ١٢٨٠٠ مليون سنة ٢١٠٠ اي ثمانية اضعاف سكان المسكونة الآن فلا تعود الدنيا كلها تسعهم وحدهم ولكن زيادتهم لم تستمر على النسبة التي كانت جارية عليهم ولذلك بلغ عددهم ٤١ مليوناً فقط سنة ١٩٠٠ بدلاً من ١٠٠ مليون والذين زادوا على ذلك فمن المهاجرين . ولم يحدث هذا النقص بسبب الحروب والاوبئة والمجاعات بل بسبب قلة المواليد فبين سنة ١٧٩٠ و ١٨٠٠ كانت المهاجرة الى اميركا قليلة جداً ومع ذلك زاد عدد السكان ٣٥ في المئة ومن سنة ١٨١٠ الى ١٨٢٠ زادوا ٣٣ في المئة ومن سنة ١٨٣٠ الى ١٨٤٠ زادوا ٣٥ في المئة ومن سنة ١٨٥٠ الى ١٨٦٠ زادوا ٣٥ في المئة ثم قلت الزيادة بعد ذلك فبلغت ٣٠ في المئة من سنة ١٨٧٠ الى ١٨٨٠ و ٢٠ في المئة من سنة ١٨٩٠ الى ١٩٠٠

يتضح مما تقدم انه لو بقي متوسط المواليد في اوربا واميركا كما كان منذ مئة سنة لبلغ سكانهما الآن اكثر من الف مليون نفس لكنه لم يزد هذه الزيادة لا بسبب الحروب والاوبئة والمجاعات بل بسبب قلة المواليد . ولو زاد عددهم حتى بلغوا الف مليون نفس وتضاعفوا في الخمس والعشرين سنة التالية كما كانوا يتضاعفون في اوائل القرن الماضي لملأوا الارض كلها ونازعوا الشعوب الاخرى كل اسباب المعيشة والبقاء فقلة المواليد نجّت سائر الامم من شرهم . اي ان قلة المواليد قامت الآن مقام الحروب والاوبئة والمجاعات في العصور الغابرة ولولاها لأكل الناس بعضهم بعضاً في اقل من مئة سنة لان عددهم يصير ثمانية اضعاف ما هو الآن على الاقل

يظهر بادئ بدء ان الذين يقللون اولادهم يفيدون نوع الانسان لانهم يبطئون زيادته فوق ما تحتمله اسباب المعيشة فيفعلون ما كانت تفعله الحروب والاوبئة والمجاعات ولكن تلك الاسباب القسرية كانت تهلك الضعيف من امام القوي في الغالب فيبقى من الناس أصلحهم

البقاء بنوع عام واما تقليل النسل الحالي فلا يقدم عليه الضعفاء والفقراء بل الاقوياء الاغنياء فيأول الى انحطاط نوع الانسان لا الى ترقيته وان لم ينحطّ النوع عمّا هو عليه فالمرجح انهُ لا يرتقي كما كان يرتقي لو استمرّ التنازع الطبيعي وانقرض الضعيف من امام القوي. فاذا استمرّت الامم تستعمل الوسائل الخيرية لحفظ نسل الضعفاء والفقراء ولم تستعمل وسيلة لحفظ نسل الاقوياء والاصحاء فمصير نوع الانسان الى الضعف والاضمحلال

اما الاقوياء الاصحاء وهم في الغالب من اهل اليسار والمتعلمين اي ليسوا من الفقراء ولا من الجاهلين فيقل نسلهم لانهم يرون تكاليف الحياة كثيرة شاقّة فلا يتزوجون باكراً كما يتزوج الفقراء والجهلاء لكي لا يضطروا الى تربية الاولاد قبلما تتوفر لهم اسباب المعيشة. فبدلاً من ان يتزوج الشاب وعمرهُ ٢٥ سنة يتزوج وعمرهُ ٣٥ وبدلاً من ان تتزوج الفتاة وعمرها ١٨ سنة تتزوج وعمرها ٢٨ سنة فيضيع من عمرهِ وعمرها عشر سنوت وهي السنوات التي يولد فيها اكثر الاولاد. ثم اذا تزوجا حاولا تقليل اولادهما بكل الوسائل المعروفة لكي لا يثقل عليهما تربية عائلة كبيرة ولاسيما بعد ان زادت نفقات التعليم والمعيشة وجرى الوالدون على اعطاء الاموال لبناتهم والاّ لم يقبل الشبان على التزوج بهنّ. ولا تعلم المرأة هل تلد ابناً او ابنةً فيرى الوالدان المدبران اللذان ينظران الى المستقبل ان ولادة الاولاد مثل المضاربة قد تكون صفقة رابحة وقد تكون صفقة خاسرة والغالب انها خاسرة فيمتنعان عنها ما امكن ولم يكونا يستحلاّن ذلك في ما مضى لاعتقادهما انهُ محرّم ديناً ولكن لما ضعفت سلطة الدين وسلطة رجال الدين لم يعد لهذا التحريم سلطة عليهما

اما الفقراء والجهلاء فلا يبالون بشيء من ذلك بل هم يستفيدون من اولادهم لانهم فلما يهتمون بتربيتهم ثم هم يستعينون بهم على العمل والكسب سواء كانوا من الفلاحين او من الصناع

يظهر مما تقدّم ان قلة المواليد امرٌ لا بد منهُ اذا أُريد ان يطول زمن الانسان على هذه البسيطة والاّ ملأها في قرن او قرنين واستنزف كل اسباب المعيشة منها وهذه القلة جارية الآن لكنها جارية على غير المراد فيقل نسل الذين يُفضَّل ان يكثر نسلهم ويكثر نسل الذين يُفضَّل ان يقل نسلهم

اما الذين يقل نسلهم الآن فيقوم دواء علتهم بان يتغير نظرهم الى الحياة وتقل تكاليفها عليهم وهذا لا يحصل بالتشريع والتقنين بل بثورة ادبية يثيرها رجال الاقلام وفضلاء الاقلام على الاسراف والتأنق وكل ما يدعو الى زيادة النفقات والتكاليف سواء كان من قبل الافراد او من قبل الحكومات. فاذا قامت هذه الثورة الادبية ونجحت وانتصر انفاق الناس

وحكوماتهم على الحاجيات وبطل الانفاق على ما لا فائدة منهُ كالحلى والحلل والزينات والبهرجات والجنود والاساطيل صار عمل كل رجل كافياً لمعيشتهِ ومعيشة عشرة معهُ

واما الذين يزيد نسلهم الآن ولا فائدة من زيادتهِ اما لضعفهم واما لجهلهم واما لانهم عالة على غيرهم فالحنان البشري يقضي على المحسنين ان يهتموا بحفظهم وحفظ نسلهم فتراهم ينشئون لهم المستشفيات والملاجئ ويقاومون الاسباب التي كانت تقضي عليهم او تقلل نسلهم لولا مقاومتها. ولكن حفظ الصالح من نوع الانسان يقضي بغير ذلك ولا بدَّ من ان يتصادم هذان الفاعلان وعسى ان يكون الفوز لاصلحهما

ايضاح لغوي

من السنن المتبعة عند اهل اللغة في وضع الاسماء للمسميات الجديدة رعاية وجه من وجوه المناسبة كما يتضح ذلك لمن ينظر في المصطلحات العلمية. والوضع لغةً جعل اللفظ بازاء المعنى واصطلاحاً تخصيص شيء بشيء متى أُطلق او أُحسَّ الشيء الاوَّل فُهم منهُ الثاني. والاصطلاح عبارة عن اتفاق القوم على وضع الشيء وقيل هو اخراج الشيء عن المعنى اللغوي الى معنى آخر لبيان المراد منهُ. فاذا تُصورف اللفظ بمعنى انصرف اليهِ سواء كانت هناك ملابسة قويَّة او ضعيفة او لم تكن ملابسة بتَّة وذلك كوضعهم لفظة (النحو) للعلم الذي تُعرَف باصولهِ صحة التركيب واحوال اواخر المركبات فانت تدري من عند ذاتك ان ليس بين لفظة (النحو) والمعنى الذي أُخرجت اليهِ ملابسة اصلاً. وكذلك اصطلاحهم على تسمية العلم الذي يوصَّل بهِ الى اثبات اصول الدين بالبراهين المنطقيَّة بـ (علم الكلام). والمعنى الاصطلاحي يتبادر اليهِ الذهن قبل المعنى اللغوي فمتى قلت العروض او النحو او علم الكلام مثلاً سبق الى الذهن المعنى الاصطلاحي الذي وُضعت لهُ كل كلمة من هذه الكلمات فيكون الوضع العُرفي قد غلب على الوضع اللغوي

واعلم انهُ كما يقع الترادف في الاوضاع اللغويَّة يقع ايضاً في الاوضاع العرفيَّة ومنشأ هذا الترادف اختلاف الاعتبارات فكما وُضع للاسد والسيف والجمل اسماء متعددة كذلك وضع اهل الاصطلاح لبعض المسميات اسمين من ذلك تسمية الصرفيين الفعل الذي ليس لهُ مفعول (لازماً) و (قاصراً)، وتسميتهم الصيغة التي يُحوَّل اليها الاسم للدلالة على الصغر او القلة او الضعف تحقيراً وتصغيراً واطلاقهم كلمة (النسبة) و (الاضافة) على الحاق آخر الاسم ياء